مقاربة إبستمولوجية لفكر ميشيل فوكو

شاكر مخلوف

قسم الفلسفة ،كلية العلوم الاجتماعية جامعة وهران 2 محمد بن احمد

تحت إشراف: أ.د. محمد بوشيبة

إذا كان هناك مدخل حقيقي لفهم العقل الغربي فهو صراعه مع الحداثة، وهذا الصراع يجسد نقد العقل الغربي لذاته دون أي تابعية أو تخصيص، وهي قصة نقد هذا النقد كذلك، ونقد النقد يشكل أهم خصوصية لهذا العقل، لأنه لا يستريح لإنتاج ولا لحصيلة إنتاج، لم يرتح العقل الغربي إلى ذاته، ولا لأي منظومة ثقافية أو مجتمعية، بل حفزه نقد النقد دائما إلى أن يفك رباطه من كل جهاز يحاول احتباسه، فكانت قدرته على الانزياح وتغيير المواقع تجنبه الانشغال بلعبة التراثي، وبالرغم من أن المشروع الغربي هو حاضن للإيديولوجيات إلا أنه هو ذاته كان أكبر مكتشفي الألعاب الإيديولوجية، وأشجع المتصدين لها والمدمرين لهياكلها، وهذا العقل نفسه هو الذي سمى الأنظمة الفكرية والسلطوية باسمها الحركي المباشر، وبذلك حقق انزياح الفكر عنها وجعلها من دون حماية[1].

العقل الغربي كان يفكر، وكانت عملية التفكير عنده أهم من الفكر ذاته، وكان التجوال والارتحال أهم عنده من الارتكان والارتكاز، وكانت قصة ارتحاله الدائمة تعلمه من عصر إلى عصر أهمية الفكر المواقعي، هذا الذي يسند انفلات الزمان في تضاريس الأمكنة والحيزات والمتون والهوامش، ويحول الآفاق والمستقبليات والماضويات كلها إلى وثائق أركيولوجية[2] تستدعي الحفر والتنقيب، وحتى الاقتلاع من الجذور.

1-في الجنون:

الجنون في العصر الكلاسيكي هو دراسة تاريخية، وكتاب فوكو هو مؤلف ذو نتائج فلسفية قيمية أخلاقية حول موقف العصر الكلاسيكي من الجنون الذي هو ظاهرة إنسانية، والعصر الكلاسيكي الذي يتحدث عنه فوكو في كتابه يقتصر على فترة تاريخية لا تزيد عن القرنين من الزمن، القرن السابع عشر والثامن عشر.

حصر المجال النظري في حقبة ضيقة من وجهة نظر فلسفية أمر محرج، ذلك أن الفلسفة تطمح إلى الشمولية، من حيث البحث عن البنى العامة والمبادئ العقلية والقيم المشتركة بين كل الناس، كي يكون الخطاب الفلسفي مقبولا ومعقولا في مختلف الثقافات والحضارات، فالخطاب الفلسفي لا يكتفي بالتنظير لحقبة واحدة دون سواها، أو لمجموعة بشرية دون أخرى، والعصر الكلاسيكي الذي يتحدث عليه فوكو هو فترة وجيزة جدا في تاريخ الإنسانية وأحداثها تدور في أوربا، فهل الجنون الذي يقابله العقل هو حكر على الغرب فقط، أم أن العقل يشترك فيه كل الناس، وعليه فإن الجنون أيضا باعتباره نقيضا للعقل؟ الجنون له وجود فعلي في ثقافات وحضارات أخرى، وقد يكون لهم تصور مغاير لما هو عليه في الغرب، وفي هذه الحالة فإن النتائج الفلسفية التي خلص إليها فوكو لا تمتد لتشمل البشرية بأسرها، ولا يمكن أن تكون مثالا لما هو عليه العقل ولا الجنون في تاريخ المجتمعات الإنسانية[3].

يتحدث فوكو في بداية كتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" عن الجذام الذي اختفى فجأة، يقول: "في نهاية القرون الوسطى اختفى الجذام من العالم الغربي... وقد كان اختفاء هذا الداء غريبا، ويعود ذلك دون شك إلى بعض الممارسات الطبية المشبوهة، وأيضا إلى الفصل العفوي بين المرضى وغير المرضى، ونتيجة أيضا للقطيعة التي حدثت بعد انتهاء الحروب الصليبية مع البؤر الشرقية للداء"[4]، وتلك الأماكن التي كان يعالج فيها الجذام لم يتم القضاء عليها، بل شهدت لعبة الإقصاء بعد قرنين أو ثلاثة من الزمن، فقد حل فيها الفقراء والمشردون الخاضعون للإصلاح والمرضى النفسانيون محل المصابين بالجذام، وهذا التغير المؤسساتي لازمه تغير في المخيال الجماعي لعصر النهضة المتمثل في سفينة الحمقى، في البداية كانت مجرد تأليف أدبي مستعار، ثم أصبحت من الألحان الشائعة، حيث يبحر الطاقم المكون من أبطال ينتمون إلى المخيال ومن نماذج أخلاقية أو أنواع اجتماعية في رحلة طويلة رمزية إن لم تأت بالثروة فإنها ستكون صورا في قدرهم وحقيقتهم[5]، يقول فوكو أن هذه السفن التي تنقل حمولتها الجنونية من مدينة إلى أخرى كانت موجودة فعلا، والحمقى كانوا يعيشون حياة الترحال والتيه، وهذه الممارسة كانت سائدة خاصة في ألمانيا؛ السفينة والماء وإبحار المجانين تحمل دلالات رمزية كبيرة، فالماء يكتسح كل شيء، إلا أنه يفعل أكثر من ذلك إنه يطهر، وبالإضافة إلى ذلك فإن الإبحار يسلم الإنسان إلى قدر غير محدد، كل إنسان يسلم نفسه إلى قدره، إن إبحار المجنون في الوقت ذاته هو تمييز صارم وانتقال مطلق[6].

وفي العصر الكلاسيكي كان هناك ربط كبير بين المجنون والبحر، وتم اعتبار الجنون على أنه الحضور المسبق للموت، والمجنون المحجوز داخل مركب لا يستطيع من فكاكا، فقد أسلم أمره للنهر ذو الأذرع المتعددة، إنه يسلم نفسه إلى عالم اللايقين الرهيب الموجود خارج كل شيء، وهو مسجون ضمن السبل الأكثر حرية والأكثر انفتاحا، والأرض التي سيحط بها تجهل عنه كل شيء، كما لا تعرف اليابسة التي ستطؤها أرجله من أي أرض هو آت، فلا حقيقة له، ولا وطن إلا في ذلك الامتداد الخصب بين البراري التي لا يمكنه الانتماء إليها[7].

لقد استفز كتاب فوكو "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" حساسية الفلاسفة والمؤرخين، ليست فقط التحديات الفكرية التي طرحها عليهم، بل أيضا من جهة الأسلوب المثير ذو الطابع الأدبي المنمق، اعتبر هيدون رايت بلاغته خاصية تعكس في جانب منها تمرد جيله على الوضوح الديكارتي، وأن سر خطاب فوكو يكمن في استعماله الحيل الكلامية، التي تتحول بها اللغة إلى لغة شعرية، وسلطان خطاب فوكو حسبه مستمد بالدرجة الأولى من أسلوبه وليس من الأدلة المستمدة من الحقائق، أو من صرامة منطقها، وأنه في هذا الأسلوب يستعمل المجاز المسمى"استعمال الكلمة في غير موضعها"، في المجال الأول في عملية بسط الأفكار، وأن هذا المجاز يشكل نموذجا لنظرة فوكو حول العالم يبدأ منها نقده للفلسفة الإنسانية والعلم والعقل ومعظم مؤسسات الثقافة الغربية، والشكل الذي اتخذته منذ عصر النهضة[8].

ميزة أخرى من ميزات خطاب فوكو هي الميل الدائم إلى اللهجة النبوية، وإلى الإلماعات الرؤيوية، وخياله يقع دائما في نهاية عصر، ولكن رؤياه هي ما لا يمكن توقع ظهوره في نهاية الزمن، فهذا المناهض لأي تفكير غائي يقاوم إغراء أي نهاية حاسمة بقدر ما يستمتع بالبدايات التي تبدأ بحرية الفعل، باكتشاف المفارقات وبالإشارة إلى الحماقات التي تكمن في كل نزوع إلى المعرفة[9].

خطاب فوكو يبدو وكأنه قلب لكل ما قد يوصف أنه عادي أو لائق، وهو في ظاهره تاريخ أو فلسفة أو نقد، ولكنه يشكل في الواقع نقيضا ساخرا لكل هذه الأنواع من الخطاب، وكان هدف فوكو هو تحطيم الخطاب نفسه وهذا نلاحظه من خلال المجاز الذي يستعمله كثيرا بداية في كتابه تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، حيث كان يستعمل الكلم في غير موضعه[1].

يحتل العقل والعقلانية مكانة راقية في الثقافة الغربية، ومعلوم أن فوكو في جهة نيتشه أي في جهة اللاعقلانية، هذا في حين أن هابرماس يتموضع في جهة العدوين اللدودين لنيتشه على المستوى الفلسفي، وهما كانط وهيغل، وهذان الأخيران يمثلان ذروة العقل الغربي في تفوقه وعظمته، لكن فوكو وفلاسفة ما بعد الحداثة يريدون تفكيك هذه العقلانية الفذة بلغة جاك دريدا، أو تعريتها على الطريقة الجينيالوجية والأركيولوجية إذا ما استخدمنا لغة نيتشه وفوكو[11].

لقد شن هابرماس حملات عنيفة على فلاسفة ما بعد الحداثة ومن بينهم فوكو، الذين يريدون تدمير الحداثة والأنوار وإنجازاتهما، فعندما تم دعوة هابرماس إلى باريس لإلقاء محاضرته عن الحداثة في الكوليج دو فرانس، شن هجوما ساحقا على الفلاسفة الفرنسيين، واعتبر أنهم بحجة تجاوز الحداثة يريدون القضاء على أفضل ما أعطته، الحداثة هي العقلانية الغربية التي تشكلت في نهاية القرن الثامن عشر، وحسب هابرماس تمثل عظمة الغرب وتفوقه على جميع شعوب الأرض، وبالتالي اعتبر فلاسفة فرنسا أنهم أشخاص عدميون نيتشويون لا مسؤلون، واتهمهم بالنزعة الفوضوية التي تريد إخضاع العقل للنقد الجذري من أجل زعزعة جدرانه الحديدية، فالعقل أصبح سجنا أو قبرا بالنسبة إليهم[12].

ويقول المؤرخ بول فيني الذي حضر عشاء إلى جانب هابرماس وفوكو، حيث جرى بينهما نقاش حول مسائل سياسية وأخرى فلسفية، وقد أنهى فوكو هذا النقاش بقوله: ربما كنت فوضويا يا سيد هابرماس، وقد كان هابرماس اتهمه بالفوضوية والعدمية على طريقة نيتشه وهيدجر، وعندما ألقى فوكو درسه في الكوليج دو فرانس عن نص كانط ما هو التنوير؟ وأعلن فيه أنه ينتمي إلى الخط الفكري الذي دشنه صاحب نقد العقل الخالص قبل أكثر من مائتي سنة، جعل هابرماس يعتبر ذلك علامة إيجابية في تطور فكر فوكو، واعتبر أن هذا تراجع عن نقده الراديكالي المدمر للحداثة، حيث أنه رثاه بمقالة مؤثرة بعد موته المفاجئ سنة 1984، واتخذ رثاؤه العنوان التالي "سهم يخترق قلب الأزمنة الحاضرة" والمقصود بالسهم هنا هو فوكو الذي لم يعش طويلا، والذي أمضى حياته المتوترة في نقد الحداثة ومؤسساتها، يضاف إلى ذلك أنه اخترق العصر كالنيزك الحارق[13].

2. في المعرفة والسلطة:

لقد قام ميشيل فوكو بأكبر محاولة لنقد العقل الغربي وتعرية ملابساته السلطوية وكل أشكال الهيمنة التي ترافقه، وأثبت أن هذا العقل ليس معرفيا محضا، وليس واعدا بالحرية كما يزعم، إنما هو متورط في ممارسات القوة والهيمنة والسلطة، هذه السلطة التي أصبحت تهيمن بشكل كلي على مستويات الوجود البشري.

يتحدث فوكو عن المعرفة لا كعملية خلق وابتكار وتفنن غير مشروط، وإنما كحصيلة عملية من التنويع والتشكيل المحكومة ببعض قواعد تعمل بطريقة قبلية ولكن في حدود تاريخية بحتة، ومن ثم فالأركيولوجيا لا يصبح تاريخ الفكر بمعناه المألوف، وإنما شروط إمكانه، أي دراسة الأرضية المعرفية التي تحكم قوانين انبثاقه، الأمر الذي يترتب عليه نبذ مفاهيم التأثير والتأثر والأصل والمصدر والتكامل والتلاقي، وكذلك استبعاد العملية الغائية التي يضفيها العقل أو الشعور على الأشياء، ورفض دور السببية التي ترتبط بين ظواهر تقوم على التشابه والتكرار، حيث يمكن توحيد مجموعة من الأحداث المتناثرة حول مبدأ رئيسي[14].

ومنذ بداية فوكو التدريس في الكوليج دو فرانس سنة 1970 يبدأ في الحديث عن منهجه الجينيالوجي الجديد الذي استلهمه من كتابات نيتشه، حيث بين الجوانب التكوينية والوضعية للمؤسسات والتنظيمات والآليات السلطوية التي لعبت دورا هاما وفعالا في تأسيس الممارسات الفكرية، التي ارتبطت بها كل هذه العلوم الطفيلية التي نعرفها تحت مسمى علوم الإنسان، وقد استطاع فوكو بفضل مفهومه الإنتاجي للسلطة الذي طبقه في دراسته عن نشأة السجن سنة 1975 أن يربط عمليات التنظير الفكري في الغرب بواقع الحياة الاجتماعية بتوجهاتها الإستراتيجية الأساسية نحو بناء الدولة الليبرالية الحديثة، ومن ثم ربط فوكو بين الممارسات المعرفية وما يتمخض عنها من علوم نفسية واجتماعية واقتصادية وغيرها بالتنظيمات والتقنيات التي تبتكرها السلطة لإخضاع الأفراد وتطويعهم، بحيث يتم دمجهم في الآلة الإنتاجية الكبرى للمجتمع الرأسمالي، الذي تستقر دعائمه من خلال هذا الربط، كما ينسب فوكو إلى السلطة استخدام تقنيات مماثلة لتقنيات كنسية مثل الاعتراف، وعملية فحص الضمائر، بهدف تطويع النفوس وتثبيت مبادئ الضبط والتنظيم، بطريقة تتداخل فيها معايير السوية والصحية، والعقلية والنفسية، والاجتماعية والأخلاقية[15].

لكن الغريب في تحليلات فوكو للمعرفة والسلطة في انه ينسب للسلطة آليات ملتوية، واعتباره أن المعرفة كحصيلة للتشكل التاريخي نافيا عنها صفة الإبداع والابتكار، ففوكو كان يصر على تجاهل اللحظة الخاصة للعلماء واعتبر أنها تعطي اعتبارا مبالغا فيه، ويعطي مثالا على ذلك تصور نيوتن للجاذبية، يقول فوكو أنها ليست مهمة، وهذا النوع من تاريخ العلوم يحتوي على كثير من المشكلات، ففوكو مشغول بـ"لاشعور الثقافة" أو بما كان مخفيا ومكبوتا منها، وكيف أن هذه التحولات العلمية التي تظهر شيئا كان موجودا وتكبت شيئا آخر كان موجودا كذلك؛ في حين أن تشومسكي أكد على الإبداع والاستعداد الغريزي لاكتساب اللغة، وقد أقر فوكو أنه لا يؤمن بالطبيعة البشرية، وقد يعتبر هذا الكلام خطيرا، لأن هذه النظرة لا تعطي أي اعتبار للقيم الإنسانية[16].

ويوجد من المفكرين الذين لم يصدموا فقط بأفكار فوكو، بل استاءوا منه، ولذلك عارضوا منهجية فوكو الفلسفية واستتباعاتها العملية، ومنذ الوهلة الأولى شدهم أسلوب فوكو الذي بدا لهم غريبا عن البحث الفلسفي والتاريخي، حيث أكد هيدون وايت أن نثر فوكو غير ملائم للتفكير العلمي، بل واعتبر أن وراءه خلفية إيديولوجية تتمثل في سد الباب أمام أي نقد يوجه إلى أعماله، يقول وايت: "فجمله لا تنتهي – جمله الاعتراضية، وتكراراته– وما ينحته من كلمات ومفارقات، وجمعه للمختلفات، ومناوبته بين المقاطع التحليلية وتلك التي تتخللها الروح الغنائية، ومزجه للمصطلحات العلمية والأسطورية، كل هذه الأمور يبدو أنه قصد منها حجب خطابه عن أي تناول نقدي يقوم عن مبادئ إيديولوجية تختلف عن مبادئه"[17]، فمن الصعب تحديد موقف فوكو الإيديولوجي نفسه، فهو إن كان يكره الليبرالية فهو يحتقر اعتماد الفلسفة المحافظة على التراث، ومع أنه كثيرا ما يساند الراديكاليين الماركسيين، إلا أنه لا يشاطرهم ثقتهم بالعلم، وهو يصف اليسار الفوضوي بالصبيانية بسبب ما يعقد من آمال على المستقبل، وبالسذاجة بسبب ما إيمانه بطبيعة إنسانية طيبة، وموقفه هذا يجعله ضمن العدمية النيتشوية التي تقول بجنون كل حكمة، وحماقة كل معرفة[18].

لم يخفي فوكو تأثره بنيتشه وقد أعلن ذلك صراحة، لكن تأثره بهيدجر بقي جاثما لم يفصح عنه إلا في بعض حواراته المتأخرة، اعتبر «آلان ميجيل» أن فوكو هو وريث نيتشه وهيدجر، وعلى الرغم من أنه يختلف معهم في التفاصيل فإنه يقبل افتراضاتهما الأساسية حول أزمة الحداثة وعدمية الحاضر، وأعماله التاريخية تتخللها نظرة متأزمة للواقع، فهو يعمل بنشاط لزرع فكرة الأزمة، وكل شيء عنده قابل للتحطيم، أو يجب تحطيمه، ومع مفكر مثل فوكو فإنه ليس من المستغرب أن من بين الأشياء التي حطمها قواعده ذاتها، ثم يعيد صياغتها وتحطيمها

من جديد، وقد كان تعامله مع النصوص محبط، فهو على الدوام كما يرى «ميجيل» يسيء استعمالها وتأويلها، وأن سلطة خطاب فوكو متأتية من واقع أن خطابه غير مفهوم وغامض، وعلى أساس هذا الغموض فإن نصوصه متعددة بتعدد القراء، وجذابة لكل من يستشعر عيوبا في النظام القائم[19].

وقد تساءل الكثير من النقاد عن المكان الذي نموقع فيه فوكو، هل هو مؤرخ أم عالم نفس أم فيلسوف أم ناقد أدبي، لقد كانت جل عناوين كتبه تواريخ، وفي الوقت نفسه يعترف بأنه ليس مؤرخ محترف، بحجة أنه لا أحد كامل، والكثير من المتأثرين بفكر فوكو اعتبروا بأنه اختار منهجا جديدا وأنموذجا آخر للعمل التاريخي، لكن هذا يفترض أن يتفق فوكو مع القواعد الاجتماعية المسماة علما، حيث يرى "ميجيل" أن فوكو عدو المواضعة الاجتماعية عامة، وللمواضعات الاجتماعية للعلم خاصة، واعتبر أن فشله في تبني المعيار المعمول به في البحوث التاريخية ليس لانفتاحه على زوايا متعددة من القطاعات، ولكن نتيجة لأنه مضاد لأي نوع من قواعد الانضباط، فهو يقف خارج جميع التخصصات منسحبا منها، بغرض تقويضها وهدمها[20].

يناهض فوكو المثقف الكوني الذي يستأثر بحقيقة الخطاب، ويزعم التحدث باسم الجميع؛ ويحتقر المتنبئين بالمستقبل الذين يبنون مشاريع في الهواء، وقد سمى فلسفته "إشكالية انطولوجيا الحاضر"، لكن ما يحسب عليه أنه هو نفسه سقط في نفس الفخ الذي عابه على الآخرين، حيث أنه تنبأ مثلا بأنه يوما ما سيصبح القرن الحالي قرنا دولوزيا، نسبة إلى زميله الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز، ونبوءته هذه لم تتحقق إلا في البلدان الفرانكفونية، فدولوز ليس له هذا الحضور المكثف والطاغي في الدراسات الفلسفية المعاصرة، وقد تكون نبوءته هذه إحدى المجازفات الفكرية التي وقع فيها فوكو[21].

3. في الأخلاق:

يعتبر فوكو أن مؤلفه المعنون بـ"تاريخ الجنسانية" هو تاريخ في الأخلاق، ويهتم هذا التاريخ بمسائل أربعة، يسميها فوكو: الجوهر الأخلاقي، صيغة الخضوع، ممارسة الذات، الغائية الأخلاقية، بمعنى التساؤل عما يهتم به مجتمع أو مجموعة في فترة تاريخية معينة، وهذه الجوانب الأربعة لا تعمل منفصلة أو معزولة، بل هي مترابطة ومتداخلة خاصة في علاقة الذات بذاتها، فهي على حد تشبيه دولوز بمثابة العلل الأربعة: المادية والصورية والفاعلة والغائية[22].

إن تاريخ الجنسانية يبدأه بكتاب "إرادة المعرفة" ليتلوه فيما بعد بكتابين "استعمال اللذات" و"الانشغال بالذات" كجزأين ثاني وثالث، الصادرين سنة 1984، فبعد بيان كيفية تشكل منطوق الجنسانية الراجع إلى بداية القرن التاسع عشر، وبعد بيان أشكال الضبط الاجتماعي وتقنيات السلطة الحيوية في الجزء الأول، سيحيلنا فوكو إلى ما يسميه تقنيات الذات، أي أشكال ضبط الذات ومراقبتها والسيطرة عليها من خلال علاقة الذات بذاتها، فبعد ثمان سنوات من صدور كتاب إرادة المعرفة سيعود فوكو بعيدا إلى القرن الرابع قبل الميلاد ليدرس فترة تمتد حتى القرن الثاني ميلادي، وهو بذلك يتابع جينيالوجيا كيفية تكون الذات، فهل هناك علاقة بين الجزء الأول والجزأين الأخيرين، رغم اهتمامهما بفترتين تاريخيتين متباعدتين؟ يعد هذا الترتيب الفوكوي محير، حيث يجب أن تكون إرادة المعرفة هي آخر الأجزاء؛ ما الروابط القائمة بين الذات اليوم كموضوع لشتى المعارف والتقنيات السلطوية، والذات الإغريقية المنشغلة بذاتها، هل في الرجوع إلى اليونان ما يعيننا اليوم على فك حصار الذات وتمكينها من أخلاقية ممكنة؟ أم أن فوكو لا تستهويه لعبة الأصل والبحث عن الحلول؟ وإنما كان سعيه للوصول لإعادة التفكير في الطريقة التي يطرح بها الناس مشكلة سلوكهم[23].

في تاريخ الجنسانية يعتبر فوكو أن الدراسات التي قام بها هي دراسات تاريخية من جهة الحيز الذي تعالجه، والمراجع التي تتخذها، ويقول في الوقت نفسه هي ليست أعمال مؤرخ[24] ، ومع ذلك فإنه يعرف نفسه على أنه أستاذ تاريخ أنظمة الفكر، ومهما كانت الأسماء فإن فوكو مؤرخ يختلف عن المؤرخين، فهو يقف بعيدا عن مفاهيم التاريخ ومناهجه المتعارف عليها، والمنظرون الأخلاقيون طالبوه بمعايير وقواعد واضحة لتبرير حملته المتواصلة ضد الأخلاق، حيث تساءلوا عن المبادئ التي استعملها في انتقائه للأحداث وتطويعها لأغراضه النظرية[25].

وعلى غرار فوكو باعتباره ينتمي للتيار مابعد الحداثي، فعلى المستوى الأخلاقي هذا التيار يتميز بموقفه العدمي، وليس خصوم هذا التيار فقط من يستعمل هذا الوصف، بل حتى المنتمون لها مثل جياني غاتيمو في كتابه نهاية الحداثة، حيث يصف موقف ما بعد الحداثة بالعدمي، وبين أصوله عند نيتشه وهيدجر، يقول: "تتخذ لفظة العدمية هنا المعنى الذي أعطاه نيتشه لها في الملاحظة الافتتاحية لمؤلفه "إرادة القوة":

الوضع حيث يتدحرج الإنسان إلى خارج المركز نحو المجهول، ولكن هذا المعنى للفظة عدمية يلتقي بشكل إجمالي بتعريف هيدجر لها: العملية التي بها في نهاية المطاف لم يعد ثمة شيء فيما يتصل بالوجود[26].

ولقد أفرد جيل دولوز فصلا كاملا لمفهوم العدمية في كتابه "نيتشه والفلسفة" حيث بيّن أصل الكلمة ومعانيها الأساسية، يبيّن أن العدمية *La nihilisme* لا تعني اللاوجود، بل قيمة عدم أولا، والحياة تأخذ قيمة عدم بمقدار ما يجري نفيها والحط من قيمتها، والحط من القيمة يفترض دائما وهما، كما يبين صلتها بنيتشه عن موت الله، واستعمالها في نقد هيجل وتأسيس نظرية الإنسان الأعلى، فتعني العدمية في معناها الأول وفي أساسها قيمة عدم تأخذها الحياة، وهم القيم العليا التي تعطيها قيمة العدم هذه، إرادة العدم التي تعبر عن نفسها في هذه القيم العليا، والمعنى الثاني للعدمية والأكثر شيوعا، هي لا تعني إرادة، بل ردة فعل، يجري رد الفعل ضد العالم الفوحسوس، وضد القيم العليا، يجري نفي وجودها وإنكار صحتها إنكارا كاملا، لم يعد هذا هو الحط من قيمة الحياة باسم قيم عليا، بل بات حطا من قيمة القيم ذاتها[27].

هكذا ينفي العدمي الله، والخير، وحتى الحقيقة، لا شيء حقيقي، لا شيء خير، لقد مات الله، لم يعد عدم الإرادة عرضا فقط لإرادة عدم، لكن في أقصى الأحوال بات نفيا لكل إرادة قرفا من الحياة، لم يعد هنالك إرادة إنسان أو إرادة أرض "الثلج في كل مكان، الحياة خرساء هنا، وآخر الغربان التي تسمع صوتها تنحب ما الفائدة ! عبثا لا شيء ينبت أو ينمو هنا بعد الآن"[28].

ولا شك أن كتابات فلاسفة مابعد الحداثة الفرنسية تحيل إلى العدمية، وهي في صورتها ما بعد البنيوية كما يمثلها فوكو ودريدا ودولوز وليوطار وبودريار ذات أصول نيتشوية وهيدجرية.

وإذا كانت ما بعد الحداثة في عمومها تتصل بميراث العدمية، فإنها تتصل أيضا بالميراث الكانطي، وبتأويل معين للفلسفة النقدية الكانطية وهذا ما نجده عند فوكو، ومسألة أخرى وهي علاقة الأخلاق بالجمال، حيث حاول فوكو الجمع بينهما من خلال فن الوجود، ولا شك في أن العلاقة بين الأخلاق والجمال هي علاقة ملتبسة، ذلك أن موضوع الجمال هو موضوع تأمل، في حين أن الخير هو موضوع عمل وتصرف، ومن هنا يرى بعض الباحثين أن المدخل المناسب لهذه العلاقة يكمن في التأكيد على أن خصوصية الجمال الأخلاقي يظهر في الفعل، بما هو إبداع ذاتي، وأن الفعل الجميل تعبير عن فعل قائم بذاته يترجم العناية والاستقامة، ويبلغ مداه في التسامي، بحيث يتجلى الخير في أفعاله، وبذلك نرى الجمال علامة على الخير [29].

يقول فوكو: "ينبغي أن أفترض أن خطابي هذا لا يؤّمن لي طول البقاء، وإنني إذ أتكلم لا أتحاشى موتي وإنما أؤسسه، أو بالأحرى أنني أزيل كل داخلية في هذا الخارج الذي لا يبالي بحياتي، هذا الخارج الذي لا يقيم أي فرق بين حياتي وموتي"، لم يسعى فوكو إلى بناء صرح فلسفي ضخم خالد، على غرار الفلاسفة الحداثيين، ففلسفته تعبير عن واقع يعيشه الغرب، كل ما حاول القيام به هو حفر وتعرية هذا الواقع تماشيا وتعريفه للفلسفة باعتبارها تشخيصا للواقع كما يحددها فوكو.

وقد كان مشروع فوكو الفلسفي وفيا لتراث ثوري كامل في الفلسفة الغربية، افتتحه كانط، وسار على هديه كارل ماركس فيما بعد، ففوكو لم يكتف بالتنظير للعلوم الإنسانية الحديثة، وبلورة المصطلحات الجديدة الفعالة، وتجديد الأدوات الفكرية فحسب، وإنما تجاوز كل ذلك إلى التفكير بإمكانية تغيير الواقع عمليا، لكي يصبح أكثر حرية وأكثر عدالة، أو أقل ظلما، وهنا تجيء كتبه مثل "تاريخ الجنون" أو "المراقبة والعقاب" أو "تاريخ الجنسانية"، في هذه الكتب الثلاثة حاول فوكو أن يعطي حق الكلام لمن هم محرومون منه تاريخيا، أراد إعطاءه للمجنون الذي لا يستمع إليه أحد إلا لكي يسخر منه، وللسجين، وللحركات النسائية والتحرر الجنسي، لم يقل فوكو بأن المجنون أفضل من العاقل، أو أن السجين بريء في كل الأحيان، أو أن الحرية الجنسية ليس لها حدود، لم يقل ذلك أبدا في أي كتاب من كتبه، فكل ما أراد أن يفعله هو التعرية الأركيولوجية لأسس الحضارة الغربية، والكشف عن وجهها السالب الذي هو جزء لا يتجزأ من وجهها الموجب، بمعنى تعرية أسس الحضارة البرجوازية الليبرالية على مستوى الإنجازات والمؤسسات، وتبيان ضحاياها على أرضها بالذات، فلكل حضارة ضحاياها، وهنا تبرز أهمية بحوثه، والشيء الذي لا يقبل به فكر فوكو هو أن تعتبر مؤسسات الحضارة الغربية، ومقولاتها، وإيديولوجياتها المرافقة، بمثابة القانون الكوني والبديهيات التي لا تناقش، فليس هناك بديهيات لا تناقش بالنسبة لفوكو، وليس هناك خطاب بريء كل البراءة[31].

الهوامش:

1. مطاع صفدي: نقد العقل الغربي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص 05 .

2. المرجع نفسه، ص 05 محمد المزوغي، مرجع سابق، ص ص 47، 48 .
3. ميشيل فوكو: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، مصدر سابق، صص 23، 25 .
4. ميشيل فوكو: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، مصدر سابق، ص 29 .
5. محمد المزوغي: مرجع سابق، ص 51 .
6. ميشيل فوكو: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، مصدر سابق، صص 32، 33.
7. هيدون رايت: ميشيل فوكو ضمن البنيوية وما بعدها–من ستراوس إلى دريدا–، ترجمة: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2004، ص ص 97، 99.
8. هيدون رايت ، مرجع سابق، ص 101 .
9. محمد المزوغي: مرجع سابق، ص 58.
10. هاشم صالح: مجنون يحاكم العقل الغربي، مقال منشور في جريدة العرب الدولية الشرق الأوسط، الأحد 13 جوان 2003، العدد 8993.
11. المرجع نفسه.
12. هاشم صالح: مجنون يحاكم العقل الغربي، مرجع سابق .
13. محمد علي الكردي، مرجع سابق، ص 08 .
14. محمد علي الكردي، مرجع سابق، ص ص 10، 11 .
15. مناظرة ميشيل فوكو ونعوم تشومسكي: الطبيعة البشرية –العدالة ضد السلطة– عرضت في التلفزيون الهولندي سنة 1971، https://www.youtube.com/watch?v=YcYOuffbQ8c
16. هيدون وايت، مرجع سابق، ص 97
17. هيدون وايت، مرجع سابق، ص 98
18. محمد المزوغي: مرجع سابق، ص 15.
19. المرجع نفسه، ص ص 16، 17 .
20. محمد المزوغي: مرجع سابق، ص 18 .
21. عبد العزيز العيادي، مرجع سابق، ص 99 .
22. المرجع نفسه، ص 100 .
23. ميشيل فوكو: إستعمال اللذات، ترجمة: جورج أبي صالح. مصدر سابق، ص 11 .
24. محمد المزوغي، مرجع سابق، ص 17 .
25. جياني غاتيمو، مرجع سابق، ص 23 .
26. جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص 189، 190 .
27. فريديريك نيتشه، مرجع سابق، ص 101 .
28. الزواوي بغورة: مدخل إلى فلسفة ميشيل فوكو، مرجع سابق، ص 256 .
29. ميشيل فوكو: أركيولوجيا المعرفة، مصدر سابق، ص 274 .
.هاشم صالح: فيلسوف القاعة الثامنة، مرجع سابق، ص 13